ديوان شدو الغرباء

للشاعر أسامة كامل الخريبي

عرض: د . مباركة بنت البراء - موريتانيا

شكل الشاعر أسامة كامل الخريبي تجربته من عالمه الواقعي، وحمل هموم أمة ووطن وقيم وحضارة. لم يترك له التزامه خيارا إلا أن يئن ويتأوه تحت وطأة الاغتراب، والاستلاب، ودموع الثكالى، وأنين المحتاجين. ظل ساخطا ثائرا في أغلب الأحيان، محيا متأملا في لحظات نقاهة.

يضم هذا الديوان اثنتين و أربعين قصيدة تعددت إيقاعاتها، وتنوعت مضامينها. واستقى فيها الشاعر من روافد مختلفة، واعتنق المذهب الواقعي غالبا، وتأثر بالرومانسي كذلك.

• الوزن والإيقاع:

اتخذت أغلب القصائد شكلا عموديا، وكانت أبرز البحور التي استخدمها الشاعر بحر الكامل: إحدى عشرة قصيدة، وبحر البسيط: تسع قصائد، وبحر الوافر ثماني قصائد، وتوزعت بقية القصائد أبحرٌ الرمل والمتقارب والمتدارك.

أما قصائد التفعيلة فلم يتجاوز عددها خمساً، وجاءت كلها من بحر الكامل. فقد اختار الشاعر هذا البحر الصافي لقصائده التفعيلية، وهو ما يؤكد التزامه بالقواعد الإيقاعية لها. فلم يستخدم البحور الممزوجة في قصائده التفعيلية.

والشاعر متمكن في معظم قصائده من الوزن والإيقاع، متمرس بالبحور، وهناك انسجام وحرص على تناسب البحر مع الحالة الشعورية التي يعبر عنها. وربما يكون مأخذي الوحيد عليه بهذا الصدد هو استخدامه بحر الرمل المنوع الروي، في وصف حريق مخيم متى عام ١٩٩٨م. وذلك في قصيدته «عبرة البعث». فالبحر هنا لا يتناسب مع الإيقاع النفسي الأليم للحادثة. ولا يلائم مضمونها الجاد. ذلك أن الرمل مألوف للمواضيع الحانية؛ كوصف الطبيعة، أو الغزل ومجالس اللهو والأنس، لأنه بحر راقص يصلح للغناء. ولذلك شاع في الموشحات.

• المضامين في الديوان

إن قصائد الشاعر في مجملها لم تخرج عن دائرة الالتزام السياسي والديني عدا بعض السبحات التأملية والوجدانية.

وقد احتل الهم السياسي المرتبة الأولى في مضامينه فتحدث عن فلسطين وشهدائها، وتحدث عن سراييفو ومعاناة ذويها، وندد باحتلال العراق وتقتيل مواطنيها: (إلى طفل من جنين- أحزان شجرة الزيتون- دموع على أطفال سراييفو- إلى قرويةٍ عراقية...).

وفي جزء من هذا المحور السياسي بكى حاضر الأمة الإسلامية، وقارن ماضيها المجيد بحاضرها المهين، وحمل الساسة والحكام وزر ما يجري، ودعا إلى الكفاح من أجل التحرير: (في بلاط سيف الدولة- إلى

ابن عبدون- إطلالة على إيلات...) ولكن واقع هذا الوطن وحاله لم يمنعا الشاعر من الدعاء له والتبتل في محرابه بإخلاص وحب: (عيد الوجود- يا رب - لوحة من جمال الريف المصري...).

ويجد المحور الديني - وهو وثيق الارتباط بالهم السياسي في هذا الديوان- مكانه لدى الشاعر، فقد خصص له قصائد مفعمة بالصدق والإيمان، فتغنى بربوع مكة، ومجد نبي الإسلام، ورجع إلى الله متبتلا منيبا: (من وحي مكة- ربيع الوجود- غفرانك...)

أما القصائد التأملية والوجدانية فقد بث فيها البحر أشجانه، واعتنق الرحلة في أكثر من قصيدة، وجرحته الغربة، وغنى الحب والحرمان: (شدو الغرباء- شجون إلى البحر- رحيل- خذني لعينيك...).

● الأسلوب في الديوان:

في هذه النصوص زاوج الشاعر بين أسلوبين اثنين: الأسلوب التقريري المباشر، وكان الأغلب في هذا الديوان، حيث لا تحمل اللغة أكثر من دلالة، ولا نجد لها معاني حواف، ولا نلمس تجديدا في الصور، فالشاعر في قصائده السياسية كان ثائرا، وكانت لغته مباشرة، والصور ليست بذات ظلال، كما في قوله من قصيدة «إلى قروية عراقية»:

فـلا عشـب ولا مـاء لرعـي
وقـد أكـل الـدمـار ذرا المراعي
وقـد نشـروا الخـراب على الوهاد
وجـاؤوا يكملـون على البقـاع
لهم حقـد على الإسـلام تغلي
مراجله ويرسـخ فـي الطباع

والأمثلة على هذا النحو كثيرة.

أما الأسلوب الثاني فهو الأسلوب الرامز الموحي، ونجده إلى حد ما في القصائد التأملية والغزلية، فقد كان الشاعر فيها رومانسيا مجنحا متأثرا بالمهجريين، لذا نجد اللغة عنده موحية شفافة، والصور رامزة، نقرؤها فنحس متعة الشعر ولنقرأ هذا المقطع من قصيدته «إلى رفيقة العمر»:

كـم كنـت أحـلم أن أجـيء إليك
بـالـورد المنـسـق والأقـاحـي
كم كنت أحلم أن يضيء الحرف
مثل الشمس في عنق الصباح

وإجمالا فإن لغة الشاعر وتراكيبه - رغم تفاوت مستوياتها الإيحائية- جاءت في أغلبها سليمة، وإن كنا نتساءل عن بعض استخداماته اللغوية، كقوله من قصيدة «طفل في جنين»:

فقولوا لمن بات يعلي الجدار ترى
سـوف يحميـك هـذا الجـدار؟

والظاهر أن الشاعر صاغ الجملة في أسلوب تهكمي، ونتساءل: هل يجوز تصدير الجملة بعد الاستفهام الإنكاري بالأداة «سوف» ألا يخل هذا بالتركيب وبالمعنى المقصود من ورائه؟

كذلك في قصيدته «دموع على أطلال سراييفو» حين يقول:

ونـحـن الـغـافـرون إذا قـدرنـا
ونـحـن المؤمـنـون لـكـل ديـن

فالشطر الأخير في هذا البيت يحدث اللبس لدى القارئ، فما معنى الإيمان لكل دين؟

وختاما أقول: إني قرأت هذا الديوان، واستمتعت أثناء قراءتي له، فقد وجدت فيه تجربة أصيلة، وإيقاعا نابضا، ومحاولة جادة لنشر الرسالة التي يحملها الشاعر، وإن كانت اللغة تفتقر إلى الكثير من الإيحاء والرمز، وكذلك الأوزان في جزء منها تحتاج التوقف عندها ومراجعتها.

صدر الديوان حديثا عن مكتبة العبيكان بالرياض بطبعته الأولى ١٤٣١هـ/٢٠١٠م برقم (٣٥) في سلسلة إصدارات رابطة الأدب الإسلامي العالمية ■